

الفصل العاشر

هزيودوس

يعتبر هزيودوس أشهر الشعراء الذين ألفوا في الشعر التعليمي . ولهذا الحق باسمه ما ليس له كما عزى إلى هوميروس من الشعر الحماسي ما لم يخطر له ببال . وسنحاول أن نطوف هنا بمنتجات هذا الشاعر على عجل ، ولكن بعد أن نلجأ إلى حياته إلماعة سريعة .

(١) حياته

لدينا من المصادر عن حياة هزيودوس ثلاثة ، أولها رسالة عنوانها « مسابقة بين هزيودوس وهوميروس » ومؤلفها مجهول . وثانيها كتاب عنوانه « حياة هزيودوس » وقد عزى خطأ إلى بركلوس مع أن مؤلفه - فيما يظهر - كاتب يدعى : « تريتيزيس » . وثالثها مقالة في كتاب « سويداس »^(١) الذي كتب فيه عن كثير من الشعراء والكتاب القدماء ، وهذه المصادر الثلاثة إما اعتمدت على خرافات نسجها الشعب حول هذا الشاعر دون أن يكون لها من الصحة نصيب أصلاً ، أو لها منها نصيب ضئيل ، وإما اعتمدت على شعر هزيودوس نفسه ، وهذا الأخير هو أقرب المصادر إلى الحقيقة . ولهذا ينبغي الاعتماد عليه وحده دون الركون إلى تلك الوسائط الضعيفة التي لا ثقة فيها .

يحدثنا هزيودوس نفسه أن والده كان أول الأمر مقيماً في مدينة « كيمييه » بآسيا الصغرى فاضطره الفقر إلى الرحيل عنها فغادرها إلى « أسكرا » وهي مدينة صغيرة في سفح جبل « هيليسكون » في مقاطعة ثيبا . وما دام لم يرد نص يثبت مولده في مدينة أخرى ولم تنزع إحدى المدن الإغريقية تلك المدينة الصغيرة شرف انتساب هزيودوس إليها ، فإن المؤرخين يرجعون أنه ولد بها وقضى حياته فيها ، وهم لا يعرفون بالضبط متى ولد ولا متى

(١) هو مؤرخ عاش في القرن العاشر بعد المسيح .

توفى ، وإنما كل ما يستطيعون أن يقرروه هو أنه عاش في أواخر القرن التاسع أو أوائل القرن الثامن قبل المسيح ، وأن حياته المادية كانت شاقة متعبة ، وأنه كان له شقيق شرس مشاكس يدعى « پرسيس » كثيراً ما كان يؤذيه ويتعبه ، ولا يكاد والدهما يتوفى حتى يقسما ما ورثهما إياه من ثروة متواضعة ، ولكن پرسيس حسود سفيه متنف لا يقنع بنصيبه الشرعى ، فيقاضى شقيقه ويرشو القضاة فيحكمون له ضده فيقتطع جانباً آخر من نصيب هز يودوس ، غير أنه لا يلبث أن يركن إلى البطالة والكسل فيقذفه بين برائن الفقريينش لمحله ويقضم عظامه ، ويضطره إلى العودة إلى مشاكسة أخيه تارة وإلى التسول منه تارة أخرى .



[الصورة رقم ١٨ هي وعاء إغريق يوجد في متحف بريتش بانجلترا ، وهو يمثل ثلاثة من الزراع يتعاونون على جنى ثمار الزيتون .]

أما شاعرنا فيظل طول حياته يعمل بيديه في زراعة ما أبقاه له شره شقيقه من نصيبه الضئيل ويعيش عيشة الكفاف مما تغله له هذه القطعة الصغيرة من الأرض التي كانت مقسمة إلى مزرعة قمح ومنجلة وحظيرة للأغنام ، وحديقة تحتوى عدداً من الأشجار المثمرة أهمها العنب والزيتون .

ينبئنا التاريخ بعد ذلك أنه كان شاعراً مجيداً ، وأنه ترفع عن أن يتخذ شعره وسيلة للاقتيات كما كانت أكثرية الشعراء تفعل إذ ذاك ، وأن هذه الخطوة قد سمحت لشعره

بأن يكون غاية في الحرية والصراحة ، فلا يبالي أن ينقد في قسوة أو يهجو في لذع من هم في نظره جديرون بالنقد أو بالهجاء ، غير مقيد بعامل من العوامل أو ظرف من الظروف ، وكذلك أتاح له وسيلة الترفع عن الاكتساب بشعره فرصة وضع بعض المعارف التي تثقف الشعب وتهذب في قصائده ، لأنه لو استغل شعره في الاكتساب لألزمه ذلك سلوك خطة معينة يتحرى فيها إرضاء الذين يدرون عليه المال ومن حولهم من حواش وأتباع .

يحدثنا فصل من كتاب هز يودوس أنه ساهم في مسابقة شعرية عامة عقدت في جزيرة « أوبيه » بمناسبة تأبين الأمير أنفيداماس ، فأحرز فيها قصب السبق وتروى لنا رسالة « مسابقة هوميروس وهز يودوس » التي أشرنا إليها آنفاً أن هذه المسابقة قد عقدت بين شاعرنا وبين هوميروس ، وهذه خرافة ، وقد وضعها القدماء في صف الأباطيل منذ عهد بلوترخيس ، بل إن هذا الأخير قد اتخذها ذريعة للطعن على قصة المسابقة كلها ، بل على الفصل الذي سجلها من كتاب « الأعمال والأيام » . وقد تبع « بلوترخيس » في هذا للمنطق كثير من النقاد المحدثين . ويرى الأستاذ كروازيه أنهم يغالون في هذا الحذر ، إذ أن إقحام اسم هوميروس في القصة بدل اسم الشاعر الحقيقي لا يقتضى الارتياب فيها لاسيما وأن الأمير « أنفيداماس » - فيما يبدو - شخص تاريخي .

أما قصة وفاة هذا الشاعر فقد رواها عدة مؤلفين بدون كبير اختلاف فيها . ومجملها - كما يحدثنا كتاب معزو إلى بلوترخيس عنوانه « مآدبة الحكماء السبعة » - أن هز يودوس كان في ضيافة أحد الاكريين وكان يرافقه شخص يدعى « مياسياس » فنشأت بين هذا الأخير وبين ابنة صاحب المنزل علاقة سيئة لم تلبث أن انكشفت لإخوتها فاتهموا هز يودوس بأنه كان يعرف سر هذه العلاقة ولم ينبئهم بها فتربصوا به حتى خرج هو وخادمه الأمين « تروثيوس » فقتلوا . ولا يبعد أن تكون هذه الرواية صحيحة إلى هنا ، ولكن المؤلف يأبى إلا أن يذيلها بأسطورة خيالية لطيفة فيحدثنا أن القاتلين لا يكادون يلقون بجثة هز يودوس في البحر حتى يجتمع عليها قطع من سمك الدلفين فيحملها إلى أحد

الشواطي حيث كان اللكريون مجتمعين يحتفلون بأحد الأعياد الدينية . وإذ يرونها يعرفونها فتثور نائرتهم ويأخذون حالاً في التفتيب عن القتلة حتى يهتدوا إليهم فيقتلهم ويحرقوا منزلهم ثم يدفنوا جثمانه عندهم ، وبعد ذلك يأمر وحي ذلفيه بنقله إلى مدينة « أرخومينياً » حيث يشاهد بوسنياس المؤرخ قبره في القرن الثاني بعد المسيح .

(ب) منتجاته أو الأعمال والأيام

ألقى القدماء باسم هز يودوس عدة مؤلفات منها : (١) الأعمال والأيام . (٢) التيوغونيا أو أسرة الآلهة . (٣) ترس هيركلييت . (٤) قوائم شهيرات النساء ، وقائمة البشرات اللواتي كلف بهن الآلهة . (٥) رسالة في التنبؤ بواسطة طيران الطير وتغريده . (٦) رسالة عنوانها « شروح على الخوارق » . (٧) رسالة في التنجيم . (٨) « حكم خيرون » وهي في الأخلاق . ويحدثنا بوسنياس أنها تتألف من نصائح كان خيرون قد أدب بها تلميذه أخيلوس ولا يستطيع أحد الاطمئنان إلى نسبة هذه القصائد - فيما عدا الأولى منها - إلى هز يودوس لأن الأربع الأخيرة منها قد فقدت ولم يبق لنا منها إلا عناوينها ، أما التيوغونيا فقد دارحول نسبتها جدل كثير انتهى بترجيح عزوا كثراً إلى شاعرنا بصورة لا يكاد النقد الحديث المعتدل يعترض عليها ، وسنشير إلى ذلك النقاش في موضعه عند حديثنا عن دوحة الآلهة .

١ - تلخيص هذه القصيدة وأقسامها

لا ريب أن أعظم منتجات هز يودوس الذي سما به إلى مرتبة أكابر الشعراء ووضعه في الصف الأول بين معاصريه هو قصيدة الأعمال والأيام ، بل إن هذه القصيدة هي التي منحت سلطة الاستيلاء على عصره ، وطبعته بطابعه .

أنشأ المؤلف هذه القصيدة بنفس اللهجة التي أنشأ بها هوميروس قصيدتيه وأناشيده ، وهي مؤلفة من عناصر شديدة الاختلاف وإليك مجملها :

تألف قصيدة الأعمال والأيام من ثمانمائة وثمانية وعشرين بيتاً ، يشغل القسم الأول منها ثلثمائة واثنتين وثمانين بيتاً ، وقد عنى المؤلف فى هذا القسم بإجلال العمل والعدالة والثناء عليهما ، وهو يتبدى - فى الآيات العشرة الأولى - بدعوة عرائس الشعر إلى التغنى باسم زوس العادل ثم يصور لنا فيما يلى ذلك أى من البيت الحادى عشر إلى الحادى والأربعين أسطورة الإريسين^(١) الشقيقتين أو إلهتى الغبطة والحسد ويبين لنا كيف أن الأولى مخصصة ، وأن الثانى مجذب قاحل لا ينصح إلا بالظلم والشر .

وفى ما بين الثانى والأربعين والخامس بعد المائة يحدثنا عن أسطورة بندوريه فيرسم لنا كيف أنها عند ما تفتح علبتها تفر منها جميع الآلام فتنتشر بين البشر ولا يبقى فى العلبة سوى الأمل .

وفى ما بين السادس بعد المائة ، والأول بعد المائتين يبسط لنا أسطورة الأجناس الخمسة : الذهبى والفضى والنحاسى والبطلى والحديدى .

والروح الخلقية العامة التى تشع من هاتين الأسطورتين الأخيرتين يمكن إجمالها فى أن الآلهة قد فرضوا على الأناسى ذلك التاموس القاسى الذى يسمى تاموس العمل .

وفى ما بين الثانى بعد المائتين والخامس والثمانين بعدهما يشهدنا المؤلف أن الجائر معاقب دائماً بأسر زوس .

وفى ما بين السادس والثمانين بعد المائتين ، والثانى والثمانين بعد الثلثمائة يغمرنا فى بحر من النصائح القوية الحاثية على العمل والشرف والعدالة .

ويتكون القسم الثانى من هذه القصيدة من ثلثمائة واثنى عشر بيتاً ، ويمكن تجزيؤه إلى جزئين .

فأولها - وهو ما بين الثالث والثمانين بعد الثلثمائة ، والسابع عشر بعد الستمائة - يعنى بأعمال الحقول وما يتعلق بها من قريب أو من بعيد .

(١) الإريسان مثنى ، مفردة إريس ، وهو اسم للشقيقتين اللتين كانت إحداهما إلهة الحسد ، والأخرى إلهة الغبطة .

وثانيهما - وهو ما بين الثامن عشر بعد الستمائة ، والرابع والسبعين بعدها - يعنى بالملاحة ويحاول كشف أسرارها وخفاياها وإن لم يكن شاعرنا فنياً فى هذا الباب .

أما القسم الثالث - وهو ثمانية وستون بيتاً تشغل ما بين الخامس والتسعين بعد الستمائة ، والثانى والستين بعد السبعائة - فهو يقتصر على تحديد واجبات المرء نحو الآخرين ونحو نفسه .

وأما القسم الرابع - وهو من البيت الثالث والستين بعد السبعائة إلى آخر القصيدة - فينحصر فى ذكر الساعات السعيدة الصالحة لبدء الأعمال المختلفة .

ومن هذا يتبين أن عنوان هذه القصيدة لا ينطبق إلا على القسمين : الثانى والرابع منها وهما الخاصان بالأعمال والأيام كإيتبين أن تأليفها لم يكن فوضوياً أو إلى غير غاية محددة ، وإنما كان بناء متيناً محكماً تابعا لمنهج قد رسمه المؤلف لنفسه قبل البدء فيها . ومن آيات ذلك أنه قبل أن يشرع فى بيان أعمال الحقول وفى إيضاح الأخلاق العملية قد عنى برسم الفكرة النظرية التى يتعلّقها عن العمل وعن العدالة .

هذا هو الموجز الخاطف لهذه القصيدة العصماء ، والآن إليك إجمالها فى شيء من البيان :

ألقسم الأول

يتألف هذا القسم - كما أشرنا إلى ذلك آنفاً - من عدة أجزاء يمكن فصل بعضها عن البعض الآخر ، وإن كانت وحدة ضرورة العمل تربط بينها ربطاً كافياً لتحقيق التماسك .

وأياً ما كان فإن الشاعر يفتتح قصيدته بأنشودة فاتنة يدعوفيهاعرائس الشعر وملهيات الفن الأدبى أن يشتركن معه فى الثناء على زوس رب العدالة العليا ثم يحدثنا عن أسطورة الإيريسين الشقيقتين اللتين أنجبهما الليل ووضع لهما اسماً واحداً فينبئنا بأن أولاهما - وهى شخصية الحسد - تمثل الشر وتدفع إلى القهول والإجذاب . وثانيتها - وهى شخصية

الغبطة - تمثل الخير وتدعو إلى الخصوبة والإنتاج . وبيان ذلك أن الأولى تشغل قلب صاحبها فتلهيه عن كل عمل نافع ، والثانية تحرضه على النشاط والثابرة لنيل المبتغى .

وبعد هذه الأسطورة ينتقل بنا المؤلف إلى أسطورة بروميسيوس وپندوريه ، فيصور لنا فيها كيف أن الشر سلك طريقه إلى العالم ، وبالتالي كيف أن العمل قد أصبح ضرورة من الضرورات وكيف ناء الألم بكلسكه على كاهل الإنسانية ، فيروى لنا أن بروميسيوس - وهو ابن يابيتوس أحد التيتانوس - يصنع الإنسان من حمأ الأرض ثم يفكر في كيفية تزويده بالحياة فلا يجد لذلك وسيلة إلا نار السماء فيسرق منها جزءاً ويستعمله فيما يريد ، فيحنق عليه زوس ويشرع في معاقبته ، فيأمر « هيفستوس » أن يخلق « پندوريه » وهي امرأة جميلة مستمتعة بجميع الماوهب والميزات ثم يرسلها إلى الأرض ومعها علبة محتوية على جميع الآلام فتلتقي بـ « إيمثيوس » وهو أول إنسان فيتزوجها ويستولى على العلبة التي معها ، ولا يكاد يفتحها حتى تفر منها الآلام وتنتشر على وجه الأرض ولا يبقى فيها سوى الأمل وبعد ذلك يروى لنا أسطورة الأجناس الخمسة ، وهي عبارة عن تاريخ خرافي يرسم لنا فيه كيف يهوى العالم شيئاً فشيئاً إلى الظلمات والبأساء ، وكيف يجب على الإنسان أن يقاوم هذا الشقاء الذي لا بد منه بالعمل المتواصل ، ثم بعد ذلك يحدثنا عن خرافة البازي والبلبل التي تنتهى إلى إدانة العنف والحيف والعسف . وأخيراً يعقد موازنة مأساوية مؤثرة بين خير العدالة وشر العسف يختمها بطابع ديني يتحدث فيه عن الثلاثين ألف حارس الذين يجوبون الأرض بأمر زوس لمراقبة أفعال بنى الإنسان ثم يعقب على ذلك بنصائح هامة في موضوعات مختلفة .

ويلحق النقاد على هذا القسم من القصيدة بأنه يمتاز بإبراز المبادئ الخلاقية والآراء الفلسفية في صور حية تأخذ بمجامع القلوب ولا تزول آثارها من الرؤوس في سهولة بحيث يمكن أن يطلق عليه عنوان « الأخلاق النظرية عند هزودوس » وهو مؤسس على دعائم ناموسين من النواميس الاجتماعية ، مرتبطين إلى حد عدم قابلية الانفصال ، وهما ضرورة العمل وواجب العدالة ، ومنشأ ارتباطهما واضح بسيط وهو أن من لا يعمل لا يعيش

إلا على حساب ظلم العاملين . وتعد هذه المبادئ خطوة أولى نحو الفلسفة الاجتماعية الجديدة بأن تمنح منتجات هزيرودوس مكاناً سامياً في تاريخ الفكر كما أنها تم عن وجود طليعة مجتمع جديد تسود فيه العدالة التي تحمي الضعفاء بعد أن تقتلع من فوق عرش الظلم ذلك القانون القديم الذي رأينا في الإلياذة أنه ينادى بأن الحق للقوة وأن الويل للمهزوم ، وفي هذا يقول هزيرودوس :

« أيها الملوك تأملوا أنتم أيضاً في العدالة ! فعلى مقربة منكم ، وبين بني الإنسان يوجد من الخالدين من يراقبون الأحكام الجائرة والأوامر التي تهين الإنسان اضطراد أخيه الإنسان دون أن يشغل الظالم بسخط الآلهة ، أجل يوجد على الأرض المطعمة ثلاثون ألف خالد معينون من لدن زوس لمراقبة الفانين ، وهم يطوفون جميع بقاع الأرض ليلاحظوا - مزملين في ثياب من الضباب - أوامر البشر وأعمالهم السيئة . . . خذوا حذركم وقوموا كلامكم أيها الملوك الذين يزددرون الهدايا وتخلوا إلى الأبد عن أوامركم الملتوية ^(١) » .

ومن خواص هذا القسم أيضاً أن المؤلف كثيراً ما يظهر فيه على المسرح وأن خصامه مع شقيقه هو مأتى عدة أجزاء منه . ومن آيات ذلك أن اسم هذا الأخير يتردد في أبياته في عدة مناسبات مقروناً بالشعور الذي كان يخالج نفس شقيقه بإزاء أخلاقه وتصرفاته .

القسم الثاني :

يبدأ المؤلف هذا القسم بمقدمة وجيزة يحدد فيها الوقت الذي يلزم للعمل في الحقل ثم يتجه بعد ذلك إلى شقيقه الكسول بالنصيحة في أسلوب جاف لاذع ، ولكنه يمثل الصراحة والإخلاص وتوقع الشر له في المستقبل فيقول :

« لا أريد منذ الآن أن أمنحك ولا أن أعيرك ، فاعمل أيها المعتوه ، فإن العمل هو القانون الذي فرضه الآلهة على الأناسي ، وارهب يوماً ترفيه نفسك وزوجك وأولادك

(١) انظر البيت رقم ٢٤٩ وما بعده من « الأعمال والأيام » .

حيارى مرهقين ، فتضطر إلى الالتجاء إلى جيرانك ، لتسول منهم فيشبحوا عنك بوجوههم نعم من الممكن أن تنال منهم شيئاً مرتين أو ثلاثاً ، وإبكتك إذا ضايقتهم كثيراً فيصبح ذلك عبثاً وستذهب كلماتك أدراج الرياح ، وإذا ذاك سيجودون عليك بالخطب العريضة .
إستمع إلى وفكر في التخلص من ديونك وفي الاحتياط من الجوع^(١) .

وبعد هذه النصيحة يقدم إلى الزراع طائفة من النصائح العامة في الزراعة وفي اختيار العمال ، ثم يأخذ في سرد الأعمال الزراعية التي تتعاقب في فصول السنة ، فيبدأ بأعمال فصل الخريف ، فيحدثنا عن بذر القمح ، ويقدم إلى الزراع بعض النصائح الفنية ، ولكن الطبيعة لا تلبث أن تصب الشتاء على البشر بمتاعبه وأحزانه . وهنا يرسم المؤلف لهذا الفصل لوحة قائمة مزججة يصف فيها رعوده وبروقه ، وعواصفه وأمطاره ، وقروره وثلوجه ، وظلمته وانقباض جميع العناصر فيه ، ثم يتبع هذا الوصف بتحذير الناس من أخطار هذا الفصل وعواقبه السيئة وما يمكن فيه من أمراض ، ويلح عليهم أن يدخروا من الأقوات ما يجعلهم في مأمن من أيامه السيئة ، وأن يرتدوا من الملابس ما يقيهم شر برده القارس ، وبعد هذا العناء يحل فصل الربيع فتخضر الأرض ، وتورق الأشجار ، وتتضوع الزهور ، وتظهر الطيور ، وقصارى القول تستأنف الحياة العملية سيرها العادى . وإذا يصل المؤلف بالقارىء إلى فصل الصيف لا يعدد ما تقتضيه الطبيعة فيه من أعمال ، وإنما يسرد ما تتطلبه هذه الأعمال من فضائل كتحمل التعب والحرارة ، وتجنب النعومة ، وعدم ادخار أى جهد في العناية بالزراعة ، سواء أكان ذلك من جانب العمال أم من جانب المالك أو المشرف ، وبعد أن ينتهى من هذا يصف لنا السرور الذى يخالج النفوس عند قرب الحصاد ثم يتحدث إلينا عن قطف العنب حديثاً فنياً ممتعاً . وأخيراً يقدم إلى قرائه بعض نصائح تتصل بالملاحة ، ولكنها سطحية لا يكاد القارىء يطلع عليها حتى يحس بأنها صادرة عن مصدر غير فنى . وفي الواقع أن الملاحة لم تكن مهنة شاعرنا ، وإنما الذى حمله على معالجتها هو أنه

(١) انظر رقم ٣٩٦ وما بعده من « الأعمال والأيام » .

كان ينبغي أن يدرسها كل مزارع فيستطيع أن يبحر إلى البلاد الأجنبية متى شاء ليبيع منتجاته الزراعية .

ولا يعلق النقاد على هذا القسم بأكثر من أن أغلب فصوله مطبوعة بطابع هز يودوس وإن كان قد أضيف إليها في العصور المتأخرة ما أضيف .

القسم الثالث

لا يتحدث المؤلف في هذا القسم عن شقيقه ، وإنما هو يحتوى على نضائح وعظات تتفق مع حياة الريفيين الاجتماعية وتقاليدهم الدينية قد صيغت في صور أمثلة جامعة ، وحكم مرشدة تتعلق بالزواج و ببعض الصّلات الاجتماعية أو الطقوس الدينية ، وليس من السهل جمع هذا الخليط من المواعظ تحت راية قسم معين ، أو وضعه تحت عنوان دقيق يحدد أنواعه . ولكن الذى لا ريب فيه هو أنه مجموعة من الأخلاق العملية التى يمكن أن يقال عنها بوجه عام إنها لا تتنافى مع مبادئه النظرية ومثله العليا التى أسلفنا الإشارة إليها ، بيد أنه قد مزج بها لوناً من ألوان الروح النفعية ، وليس هذا عجيباً ولا شاذاً ، فهز يودوس - قبل أن يكون من دعاة الأخلاق المثالية - هو ريفي يتجه بتهاليله إلى الريفيين الذين يعلم أن أول ما يوقظ حساسيتهم هو الجانب النفعي من الحياة ، وهو لهذا يخطب في مواطنيه العقلية النفعية فيقول :

« أدع الآلهة وتوسل إليهم بالقرابين والضحايا حين يحن الليل فتنام ، وحين يعود النور المقدس حتى يحتفظوا لك بالحظوة في قلوبهم وتحبوك أفسكارهم فينجم عن هذا أن تشتري ضيعة الغير بدلاً من أن تبيع ضيعةك ^(١) » .

ومما يلوح من خلال أبيات هذا القسم أن شاعرنا قد فهم إلى حد الإعجاب تلك الروح القروية التى يمكن إجمالها في أن الشخص الريفي يحصر الكرامة والعزة الإنسائيتين في أن

(١) انظر البيت رقم ٣٣٦ وما بعده من « الأعمال والأيام » .

يكون سيداً في بيته ، وألا يكون مديناً لأحد .

ولا جرم أن من يفهم الحياة على هذا النحو تكون الفضائل التي تحتل الصف الأول في رأيه هي النظام والاقتصاد وتأدية الأعمال في أوقاتها المحددة ، وهو يوضح هذا فيقول عن الأول :

« إن النظام هو رأس الخيرات للفانين ، وإن الفوضى هي أفدح الآلام ^(١) . » وعن الثاني :

« إذا جمعت قليلاً إلى قليل وظللت على هذا النحو في أغلب الأوقات ، فإن ذلك القليل سيصير كثيراً عما قريب ^(٢) » . وعن الثالث :

« لا تؤجل شيئاً إلى الغد أو إلى ما بعد الغد ، فإن الذي يؤجل عمله لا يملأ أبداً مخزنه ^(٣) » .

ويعتقد النقاد أن هذا القسم قد أضيف إليه كما أضيف إلى غيره كثير من المنتحلات ، ولكنهم يعترفون أن من المتعذر عليهم تمييز هذا المضاف بطريقة ترضى العلم وتقنع البحث الصحيح .

القسم الرابع

يقصر المؤلف حديثه في هذا القسم على إبانة الساعات السعيدة في جميع أيام العام فيضع لها قائمة ، ويزعم أن أعمال كذا وكذا يجب أن تبدأ أو تتم في ساعات كذا وكذا ، وأن نوعاً من الأعمال يجب أن يعمل في ساعات معينة ، وآخر يجب أن يعمل في ساعات آخر ، وهو في كل هذا يستند إلى الحكمة الدينية الآتية من السماء إلى الأرض عن طريق الوحي ، وبهذا يعنى نفسه ويعطينا من إبانة الأسباب التي حملته على هذا التفريق .

(١) انظر البيت رقم ٤٧١ من « الأعمال والأيام » .

(٢) انظر رقم ٣٦٠ من نفس المرجع .

(٣) انظر رقم ٤١٠ من نفس المرجع .

وقد نقد الفيلسوف هيركلديس هذا الرأي وأخذ على هزودوس تفرقه بين الأيام والساعات واعتبار بعضها سعيداً دون البعض الآخر ، ولم يقطن إلى أنها من طبيعة واحدة .
ويعلق الأستاذ كروازيه على هذا بأن مما يلفت النظر في رأيه أنه يرى الحكمة العقلية تحمل هذه الحملة على الحكمة السماوية . ويرى غيره من النقاد المحدثين أن هذا القسم يشبه تقويماً عاماً خرافياً ، وأنه لا فائدة منه ألبتة إلا من حيث إنه يعطينا صورة واضحة لعقلية القدماء وخرافاتهم في التشاؤم والتفاؤل .

٢ - كيف تكونت هذه القصيدة

قام الناقدون يبحثون حول تحقيق نسبة «الأعمال والأيام» إلى مؤلفها أو إلى غيره على نحو ما حدث بإزاء الإلياذة والأوديسا ، وقد انتهت هذه البحوث هنا كما انتهت هناك بالريب في أصل هذه القصيدة وفي انفراد هزودوس بتأليفها . ومن هؤلاء المرتابين العالمان الألمانيان « تيسستين » و« لرس » الأول في سنة ١٨١٥ والثاني في سنة ١٨٣٥ . ويبدو أن بحوثهما قد ألفت شيئاً من الضوء على هذه المسألة اهتدى النقاد بوساطة أشعته إلى أن أقلاماً متأخرة عن عصر هزودوس قد امتدت إلى نصوصه فغيرت من معالمها وأصلحت منها وأضاف إليها . والذي يقبله الأستاذ كروازيه وأكثر النقاد المعاصرين من هذا هو أن القصيدة في مجموعها وعلى صورتها الحالية تقريباً هي لهزودوس ، وإنما أدخلت عليها تعديلات وإضافات أصبح من غير الممكن الآن تعيينها .

٣ - تحليل أدبي موجز

يمتاز شعر هزودوس بالبساطة والدقة في تصوير المبادئ الأخلاقية ، وبالإدراك العميق للعقيدة الدينية والتقاليد العرفية ، فأنت حينما تنقلت بين أبيات قصيدته ألفت القوة الإلهية لها السيادة في كل مكان تتصرف وتبت في مصير الإنسانية كما يحلو لها ، نعم إنه لم يبتكر

هذه الآراء ، بل هي سابقة عليه بزمن بعيد ، ولكن الذى استحدثه فيها هو أنه ابتعد بالآلهة عن الأناسى وسما بهم عن مستوأم وأحاطهم بسياج من الأسرار . فبعد أن كنا نشاهد مثلاً آلهة هوميروس يظهرون لنا بهيئة واضحة ، ويتحدثون إلينا ، ويعملون على مرأى منا ومسمع ، وبالتالي يضيقون الهوة التى تفصلهم عن الإنسانية ، أصبحنا الآن نراهم عند هز يودوس أقل ظهوراً على المسرح وأكثر غموضاً واختفاءً عن الأعين والعقول ، وبالتالي أكثر عظمة وإرهاباً وإرعاباً .

فنحن لا نكاد نلمح الآلهة يظهرون للعيان فى شعر هز يودوس إلا قليلاً كما وقع ذلك مثلاً فى أسطورة برومسيوس حيث شاهدهم مجتمعين يتحاورون للوصول إلى تصميم محدد فى الأمر الذى يحز بهم على غرار ما كانوا يفعلون فى الإلياذة . أما فى الأثرية الغالبة من قصيدة «الأعمال والأيام» فإننا نراهم يراقبون كل شىء بدقة واهتمام ، ولكن من وراء حجب لا تقوى الحواس الإنسانية على اختراقها .

يعنى هز يودوس إذاً بتصوير قوة الآلهة ونتائج أوامره وتصرفاتهم لا بإظهارهم على المسرح أو إعلانهم ما يصيبون به الإنسانية من خير أو شر ، وهو يصف هذا فيقول :
« إن الأمراض تصيبنا نهراً أو ليلاً دون انتظار أى أمر ، وإنما تنزل إلينا صامتة تحمل الألم لأن زوس الحكيم قد سلبها الكلام ^(١) » .

٤ - المبادئ الأخلاقية :

يعتبر النقاد أن تصوير هز يودوس الآلهة على هذا النحو خطوة منه نحو التجريد الفلسفى والسمو بالدين الهيلينى عن مستوى الطبيعة المادية ، ويتخذون هذا اللون من التأليف برهاناً على أن العقيدة قد أصبحت أكثر جدية وانعطافاً نحو الأخلاق العملية ، وإن شئت فقل : إن هز يودوس - بفضل عمله المستقيم ونفسه الصافية وفطرته السليمة ، وميله إلى الصلابة

(١) انظر رقم ١٠٢ وما بعده من « الأعمال والأيام » .

واعتياده الأفعال الجدية - قد حول العقيدة القديمة إلى ناموس أخلاقى ، أو أخضعها لخدمة العدالة التى هى عنده الشرط الأساسى للحياة الاجتماعية والتى بصور لنا صدارتها وقداستها بقوله :

« إن العدالة هى الناموس الذى فرضه ابن كرونوس ^(١) على الأناسى ، فمن الطبيعى أن السمك والوحوش والطيور التى تطير فى الجوى كل بعضها بعضاً ، لأن العدالة ليست لديها ، ولكن زوس منح الإنسان العدالة التى هى أول الخيرات له » ^(٢) .

تعلق هزiodوس بالعدالة إلى حد بعيد ، وجعلها الحجر الأساسى لأدبه وآرائه وأفعاله ولهذا لم يعن بأن يكون آلهته غَيْرَيْن ولا رحماء ، وإنما عنى بأن يكونوا عدولاً وكفى . وقد خلق هذا المبدأ فى نفسه قوة خلقية عظيمة ، وملاً قلبه ثقة بالناموس السماوى وبنجاح الهيئـة الاجتماعية إذا أذعنت له . وفوق ذلك هو يؤمن بأن للعدول سيكافئون بالسعادة ، وأن الظالمين سيعاقبون بالشقاء . وكثيراً ما تتردد هذه الفكرة بين سطور مؤلّفة فيصف فى إسهاب أمواج الآلام والكوارث التى تحتاج الإنسانية فى هذا العصر الحديدي الذى يعيش فيه بسبب سيادة الحيف والعنف على أكثر نواحيه كما يرسم السعادة والهناء للذين يغرمان العادلين المحبين للحق ، وهذا هو المثل الأعلى عنده ، فلا تراه يصعد إلى ما وراء العدالة من نبل أو غيرية أو فدائية أو غير ذلك من خصائص البطولة الفاتنة التى كنا نشاهدها فى شعر هوميروس ، بل بالعكس هو لا يتحدث عن أولئك الأبطال القدماء إلا ليبين أنهم أساءوا التصرف فى حياتهم فاتوا جميعاً موتات تعسة سيئة ، وهو إذا ذكّرهم فى شعره محوطين بشيء من الإجلال ، فإنما يفعل ذلك إرضاءاً للتعاليد الموروثة لا أكثر ولا أقل . وهو يمتق الحروب على اختلاف أنواعها ، وتباين ألوانها ، ولا يبرر شيئاً منها مهما كانت الدواعى الحاملة عليه ، ويعتقد أنها كلها شر يصبه الآلهة على الظالمين انتقاماً منهم . ويحس القارئ أنه لا يقر الأهواء التى كانت تستولى على أولئك القدماء الذين يدعونهم

(١) ابن كرونوس هو زوس .

(٢) من رقم ٢٧٦ إلى ٢٨٠ .

بالأبطال فتخرج بهم عن حد العقل ، ولا يتحمس لتلك المفاخر التي يعزونها إليهم ، والتي لم تجرّ على أصحابها إلا الشر والسوء . وقصارى القول لم يكن الهدف الذي يرمى إليه هو المجد وإنما هو السعادة ، والسعادة في رأيه هي غيبة الألم وخلو القلب من الهموم التي تعكر صفو الحياة . وإذا كان قد قضى حياته في التبشير للنشاط ورفع راية العمل المتواصل ، فليس ذلك لأنه كان مغرمًا بالكد والكدح ، أو لأنه كان يعزو إليهما قيمة خلقية ذاتية كما ترى الديانات السماوية ، وإنما العمل عنده ضرورة قاسية فرضها الآلهة ضمن ما فرضوه على بني الإنسان لينتقموا منهم . وإذا فالعمل جزء من البأساء الإنسانية الهائلة التي يحس بها هز يودوس إحساساً مشروباً بالمرارة يدل عليه هذا التعبير المساوى :

« إن الأرض مليئة بالآلام والبحر مغمم بها »^(١) .

بيد أنه مع هذا لم يكن متشائمًا ولا يائسًا ، وإنما كان متفائلًا مرحاً يتعلق بذلك القدر الضئيل من السرور الذي كانت حياته القاسية تسمح له بالأمل فيه ، وكان يؤيد تفاؤله ومرحه بقوله :

« ما دام أن الآلهة قد نظموا الحياة على هذا النحو ، فينبغي أن يقبلها المرء كما هي ، وأن ينتزع منها بالقوة ما لا تريد أن تعطيه إياه ، وليس لهذا إلا وسيلة واحدة وهي العمل وكان يرى أن العمل شرف ومجد ، كما أن البطالة ضعة وعار ، وهو في هذا يقول :

« ينبغي أن تعمل دائماً ، لأن الرجل العاطل يقرز الأناسي والآلهة ، وهو مثل ذكر النحل الذي يسمن من عمل الإناث ، فكُن أميناً على نصائحى ، حفيظاً لها يا شقيقى » برسيس « تصر مثلى أنا ابن زوس ، واعمل بحماس لأجل أن يعاديك الفقر ، ولكي تعزك » ديميتير « ذات التاج الضاحك وتملاً خزانتك بالغلل »^(٢) .

وهنا يلح النقد وراء ذلك المثل المادى المحدود الذى يقدمه إلينا مثلاً آخر أسى وأنبى

(٤) انظر البيت رقم ١٠١ .

(٥) انظر رقم ٢٩٨ وما بعده .

وأقرب إلى النفس منه إلى الحس وهو إرضاء الكرامة والعزة الإنسائيتين بكسبه سعادته عن طريق الذكاء والإرادة .

• - إستخدام الأساطير :

ولما كانت طبيعة العصر الذى كان يعيش فيه تقتضى إلbas هذه المبادئ ثوباً أسطورياً فقد هيات الأساطير الموروثة لشاعرنا منبعاً فياضاً يغترف منه ماشاء وكيف شاء فأحسن استخدامهم والاستفادة منه على خير وجه ممكن ، فصاغ أهم تعاليمه صياغة أسطورية جديرة بامتلاك النفوس ، وتحدث عن الغبطة والحسد ، والعدل والجور ، والنشاط والكسل والوفاء بالعهد ، والحنث فى القسم ، وغير ذلك فى أسلوب أقصوصى رشيق ، فجاء كل ذلك غاية فى الحسن والفتنة . وهاك على سبيل النموذج شيئاً من تلك الأساطير الشيقة المشتملة على أسى المبادئ الخلقية .

الإيريسان الشقيقتان أو تشخيص الحسد والغبطة :

« كلا ، ليس حقاً أن تكون « إيريس » واحدة قد برزت إلى عالم النور ، وإنما هما شقيقتان باسم واحدتيهان فى العالم ، إحداها يجب أن يثنى عليها كل إنسان ذى عقل ، والأخرى جديرة باللوم . ولما تعارضتا فى كل شىء فقد اتجهتا إلى غايتين متضادتين ، فصار ما يروق إحداها هو إعداد الحرب المشئومة والشقاق بسبب تعلقها بالشر ، ولا يوجد بين الأناسى من يحبها ، ولكن يجب عليهم قسر إرادتهم ، وبأمر الآلهة أن يقدموا التشرىف إلى « إيريس » البشعة . أما الأخرى فإن الليل أنجبها أولاً وإن ابن كرونوس إلاه القمة قد مكن لها فى الأرض بين بنى الإنسان لتكون محسنة إليهم ، وإنها هى التى تمس الكسول نفسه فتوقظه للعمل ، وقد يحدث بفضلها أن يقع نظر رجل لا يعمل ، على آخر ثرى نشيط فيشرع فى الحال فى الحرث والإنبات ، ليققاد البهبوحة إلى منزله . وقد

يتنافس الجار مع جاره بدافع التحمس للإثراء . هذه هي « إريس » التي تقدم الخير إلى بنى الإنسان ^(١) .

لا ريب أن تشخيص هز يودوس الحسد والغبطة في هاتين الشقيقتين على هذه الصورة الأخاذة آية من آيات عبقريته ومقدرته على التصوير وربط أجزاء الصورة التي يصورها بعبارة وثيقة من الصلات التي لا يتحقق الانسجام بدونها .

رأى الشاعر هذين العاملين القويين : الحسد والغبطة يتنازعان بنى الإنسان بهيئة ذات أثر فعال في حياتهم ، يأكل الأول ذبالات قلوبهم ، ويملا نفوسهم بالحسرة والألم ، ويلون وجوههم بصفرة شاحبة تشوك الناظر إليهم ويحول بينهم وبين القيام بالأعمال النافعة ، وتحفز الثانية همهم على العمل وتضاعف نشاطهم وتشعرهم بالخجل من تأخرهم عن المتقدمين ، وقصورهم عن المتفوقين ، ثم أنعم الفكر فرأى أنهما كليهما صادران من مصدر واحد وهو الرغبة التي يوقظها في نفوسنا منظر سعادة الآخرين ، ففتجه تارة نحو الخير فتسكون غبطة ، وأخرى نحو الشر فتسكون حسداً ، فلم يسهه إلا أن يتمثلها في شقيقتين أنجبتهما أم واحدة وهي الرغبة الإنسانية التي شخصها شاعرنا في الليل ، ولعله أراد بذلك أيضاً الإشارة إلى غموض هذه الرغبة قبل وضوح إحدى العاطفتين كظلمة الليل قبل تنفس الصباح .

ذيكيه أو تشخيص العدالة :

إن ذيكيه بنة زوس هي عذراء وحولها يسود جو من الإجلال العذب بين الآلهة الذين يقطنون الأولمبوس ، وحينما يسىء إليها أحد بنى الإنسان بإهانة من إهانات الكذب أو الجور تبدو لفسا في تصوير هز يودوس كأنها إحدى أسيرات تروادة وقد هوت بعد اندحار ذويها وانحدارهم إلى حضيض النذل والهوان يعذبها خصوم متوحشون فلا يسهها إلا الأنين تارة والمويل تارة أخرى ، ولرسم هذا يقول شاعرنا :

(١) انظر رقم ١١ وما بعده من « الأعمال والأيام » .

« لا يكاد أحد الظالمين ينطق بالحكم الجائر حتى تسمع صرخات ذيكيه التي كأنها تسحب على وجهها فوق الأرض وتضرب بأيدي بني الإنسان الذين يلتمهون الرشاوى ويحكمون دون أكثرات بالحق .

وعلى أثر ذلك تنعقبهم مولولة وتجتاز خلفهم المدن والقرى مخفية في السحاب ، حاملة العقاب للأناسي الذين طردوها وزاولوا قسمة جائزة »^(١) .

على أنها في بعض الأحيان عند ما يسود الحيف البشرية « لا يسمها إلا أن تتجه على الفور إلى والدها زوس بن كرونوس فتجلس إلى جانبه وتصيح أمامه بأفكار الأناسي الجائرين إيعاقهم »^(٢) .

ويرى النقاد المحدثون أن أهم ما يلفت النظر في هذه الأقصوصة هو أن الشاعر قد منح ذيكيه عاطفة تتأثر بتأثرين متضادين ، أحدهما حسن ينشأ من العدالة ، وثانيهما سيء ينشأ عن الجور ، ولم يقتصر - كما فعل غيره - على تصويرها إلهة فاترة تقبض على الميزان لتزن الأفعال في كفتيه بغير تأثر ولا أكثرات على نحو ما نرى عليه « تيميس » إلهة العدالة في أسطورة أخرى .

أسطورة بندوريه

« إن هيفستوس الماجد قد صنع من قليل من الأرض صورة شبيهة بفتاة حية إذ هكذا شاءت إرادة ابن كرونوس . وإذ ذاك سارعت أثينيه ذات العينين الزرقاوين إليها فألبستها ونظمت لها ملابسها ووضعت « خارييتيه »^(٣) حول جيدها عقوداً من ذهب ، ووضعت إلهات الفصول ذوات الشعور الجميلة فوق رأسها تاجاً من زهور الربيع ، وقد تولت كل هذا

(١) انظر رقم ٢١٩ وما بعده .

(٢) انظر رقم ٢٥٦ وما بعده .

(٣) خارييتيه هي بنات زوس الثلاث ، وهن إلهات الرشاقة اللواتي يمثل فيهن كل أنواع الفتنة والإغراء .

«بالاس أثينيه» برشاقة ثم وضع رسول الآلهة «أرجيفنتيس» في صدرها الخداع والخطب المغرية وعقلاً محتالاً ، ثم أطلق عليها اسم «پندوريه» لأن جميع سكان الأولمپوس قد أودعوا فيها مواهبهم للقضاء على المَهَرَّة من بنى الإنسان^(١) .

ويعلق بعض النقاد على هذه الأسطورة بأن هز يودوس قد غير معالمها ، إذ أن پندوريه في الأسطورة القديمة تمثل الثروة التي تجذب الإنسان وتخدعه ، بينما هي هنا تمثل طبيعة المرأة وإغواءها الرجل بجواهرها وزينتها وفتنتها وخطبها الساحرة ، وحيلها الماكرة ، سواء أأراد هز يودوس ذلك أم لم يردده .

أسطورة الأجناس الخمسة

أسلفنا حين أشرنا إلى القسم الأول من «الأعمال والأيام» أن هز يودوس يحدثنا عن أجناس الإنسانية الخمسة : الجنس الذهبي ، والجنس الفضي ، والجنس النحاسي ، والجنس البطلي ، والجنس الحديدي ، وهو يصف كل جنس من هذه الأجناس على النحو الذي يتخيله عليه . وإليك ما يصور به بعض هذه الأجناس أو ما يقع فيها من مساوئ وشوهر :

الجنس الذهبي

« إن البشر من الجنس الذهبي كانوا يحيون حياة الآلهة بمنأى عن العمل والألم ، وقلوبهم خالية من الهموم ، ولم تكن الشيخوخة المرهقة شاهرة سيفها فوق رؤوسهم ، وكانت أعضاؤهم تظل قوية إلى النهاية ، وكانوا يقضون أوقاتهم في مآدب مريحة بعيدين عن جميع الآلام ، وعند ما يموتون يبدون كأنهم نائمون ، ولقد كانت كل ثرواتهم تحت تصرفاتهم ، وكانت الأرض الخصبة تمنحهم من نفسها الفواكه بوفرة ، وكانوا هادئين يقتسمون هذه الثروات في سلام يحف بهم النعيم^(٢) » .

(١) من رقم ٧٠ إلى ٨٢ .

(٢) من ١١٢ إلى ١١٩ .

الجنس الفضى

« خلق بعد ذلك سكان الأوليوس عنصراً آخر أنزل من الأول وهو عنصر الجنس الفضى الذى لم يكن يوازى عنصر الجنس الأول جسماً ولا روحاً ، وكان كل كائن من هذا العنصر يظل مائة عام طفلاً محروماً من العقل يتعرع فى جوار والدته ويلعب فى منزلها وعند ما يحل الشباب لا يعيشون إلا قليلاً من الوقت متألمين على عدم تفكيرهم ، لأنهم لم يكونوا يستطيعون أن يتمتعوا عن تبادل العنف المتهور فيما بينهم ، ولم يكونوا يحترمون الآلهة أو يقدمون الضحايا على الهياكل كما يجب على الأناسى فعله اتباعاً للتقاليد ، فأبادهم زوس بن كرونوس لسخطه عليهم من عدم تبجيلهم الآلهة سكان الأوليوس^(١) » .

الجنس الحديدى

« إن الوالد لن يصير ، بعد ، والداً لأولاده ، والأبناء لن يكونوا أبناء ، وسيجحد الضيف الإكرام ، وسيخون الأصدقاء الصداقة ، وسيتخلى الشقيق عن أن يحب شقيقه كما كان ذلك فى الماضى ، ولا يكاد الوالدون يشيخون حتى يسبهم أبناءهم ، ويسمعونهم كلمات قاسية وتأنيبات قارصة ، ولن يعود الاهتمام بالآلهة موجوداً ، ولا القوت للوالدين المسنين مدخراً ، وسيصير الحق فى كل مكان للقوة ، وستصبح المدائن نهباً وخراباً ، وسينعدم منذ الآن كل احترام للعهد والعدالة والخير ، وسيكون الشرف للرجل الشرير وللغنيف المتعجرف ، ولن يكون لهما من أدوات العدالة إلا أذرة البطش ، ولن يحترما شيئاً ، وسيخطئ الشرير من هو خير منه بخطب منافقة يضيف إليها السباب . وبين هؤلاء الأناسى الأشقياء سيسود الحسد الشرير ذو الخطب المسممة ، يسود الحسد السعيد بالشر . وعند ذلك تغادر «أيدوس» و « نيميس » الأرض الواسعة وتصعدان نحو الأوليوس وتحفیان وجهيهما المحبوبين تحت

نقايبها البيضاء وتهجران مثنوى الأناسى لتأويا إلى مقر الآلهة ، ولن يبقى على الأرض غير الآلام الفظيعة ، وسيم الشرف فى كل مكان ، ولن يوجد الدواء فى أية بقعة من بقاع الأرض^(١) .

لم يصف هزودوس فى هذا النص الجنس الحديدى كما وصف فى النصين السالفين الجنس الذهبى والجنس الفضى ، وإنما ساقه لتصوير نتائج الرديئة وما سيقع منه من شر وسوء . وأبدع ما فى هذه الأبيات هو تلك اللوحة الفاتنة التى يرسم لنا فيها هزودوس « أيدوس » وهى شخصية الحياء ، و « نيميسيس » وهى شخصية الغضب للحق . تانك الإلاهتان اللتان إذ تريان الظلم والحِث والوقاحة قد عمت الأرض وسادت الإنسانية ، لايسعهما إلا أن تضع كل منهما نقابها الأبيض على وجهها الجميل وتغادر الأرض محزونة مما تقع عليه عينها ، وتلتجى إلى الأوليوس لتحتوى بسكانه الأقوياء من تلك المناظر البشعة . ويعلق النقد على أسطورة الأجناس هذه بأنها أسطورة قديمة أدخل عليها هزودوس تحويرات شتى وأطلق فيها لقلبه العنان ، فأخذ يغير من معالمها ويبدل من معانيها ومراميها ماشاء له خياله الخصب ، ودفعته إليه حياته الشاقة ، وأرغته عليه صلاته المرهقة ، وأوحاه إليه عصره المضطرب المائج بمختلف العواطف وشتى الأحاسيس .

٦ — كلف الشاعر بالطبيعة

يكاد النقد القدماء والمحدثون يجمعون على أن كل هذه الأساطير الشيقة وتلك النصائح النفيسة ، وهاتيك المعلومات القيمة التى تكثظ بها قصيدة الأعمال والأيام ليست هى ما تى فخر هزودوس ولا مبعث مجده ، ولا منشأ افتتان جميع المثقفين منذ عصره إلى اليوم بشعره أو تعلقهم بمنتجاته ، وإنما مصدر هذا كله هو غرامه بالطبيعة وتصويره جمالها وسحرها وقتتها .

(١) من رقم ١٨٢ إلى ٢٠١ .

نعم إن شعر هوميروس قد حوى كثيراً من أوصاف الطبيعة كما أسلفنا ، ولكن ذلك الشعر كان يقتصر على تصوير جلالها وعظمتها كالجبال الشاهقة ، والبحار الهائجة ، والعواصف المحتاجة ، والرعود المجلجلة ، والبرق الخاطفة ، والسحب المصطكة ، والسيول الهائلة ، وما أشبه ذلك . أما شاعرنا فكانت عنايته بهذه الجلائل المروعة ثانوية ، وإنما الذى شغف بوصفه ، وكلف بتصويره على لوحة قصيدته هو الطبيعة الهادئة المتواضعة المدينة بحسنها وفتنتها ليد الإنسان ، والتي أحست بهذا الدين له فى عنقها ، فأخذت تكشف له عما تحت نقابها من جمال وسحر يبهران الأعين ، ويسران الأنفس ويأخذان بمجامع القلوب ، عسى أن تؤدى إليه بهذا بعض ماله عليها من يد طولى فتستوجب بذلك شهادة منه بعرفانها للجميل ، فجعل يسهب فى وصف الحقول وما يتعاقب عليها من ألوان متباينة بتباين الفصول ، وما يحل فيها ويرتحل عنها من جمال وسحر وابتسام وسرور تغلونها دمامة وانقباض ، وتجهم واكتئاب ، وما يتوالى على نباتها من طفولة فشاب ففضوج فشيخوخة ففناء . ثم يجد أن هذا أيضاً أكثر عمومية وشمولاً فيضيّق الدائرة ويحصر الاختصاص ، فيعكف على وصف حقول بلاده ، ومناخها وقسوة الجو وطغيان الشمس فيها ، وفقر الريفين ومتاعبهم ، وشقاء العمال المتواصل فى سبيل الحصول على أقواتهم .

وفوق ذلك فإنه يفسح فى قصيدته مكاناً واسعاً للمعلومات الضرورية التى لاغنى لزارع عنها ، وللحديث عن أصناف النبات ومميزات بعض أنواعه عن البعض الآخر ، وخواص هذا الصنف أو ذاك منه ، وكيفية الوصول إلى حسن استغلال كل نوع وتحصيل أكبر فائدة منه . وليس هذا فحسب ، بل هو يرسم صفات بعض الحيوانات وطبائعها وخواصها ومميزات بعضها عن بعض وماشا كل ذلك . وكأنه قد أحس بأن الشعراء الذين يهجرون الحقيقة ليرسموا الخيال هم على ضلال فى سيرهم ، ولو أنهم أنصفوا لشغلوا قصادهم بصور الحقيقة القائمة ومناظرها الأثمية ، وصوروا ما تضيق به الحياة من أنواع المتاعب وألوان المشقات ، ورسموا ما تكتظ به من عبرات وتأوهات ، فجاءت أوصافه وتصويراته لوحات أمينة للحقيقة

في أبهى صورها تارة ، وأبشع مناظرها تارة أخرى . ولا نكاد نجد من هذه المناظر ما تلوح عليه الصورة الخيالية في مظهره إلا ذلك المنظر الذى وصف فيه الطبيعة في فصل الشتاء .
وهالك نموذجاً منه :

« في أثناء شهر الناون وفي الأيام السيئة المشتومة على الحيوانات ، كن على حذر واحتياط من الجليد الذى يسبب كثيراً من الهموم حينما يصقّر « بوريه » على بُعد من خلال الأرض ومن وراء مقاطعة « تيراس » التى تغذى الجياد ، والذى يندفع فوق البحر الواسع ، وإذ ذاك يملأ الأنين الأرض ، والغابات وأشجار السنديان ذوات السيقان الضخمة والصنوبر السميك تصاب به فى حناجر الجبال فتسقط على الأرض الحصبة ، وهنا تصعد صرخات الغابات الهائلة نحو السماء ^(١) » .